يوم عاشوراء يوم شكر لا يوم نياحة

قدم ﷺ إلى المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم عن سبب صيامهم؟ قالوا: هذا يوم نجَّى الله فيه موسى من فرعون، فنحن نصومه شكراً، فقال: نحن أولى بموسى منكم، فصامه ﷺ وأمر بصيامه، فانظر إلى تضامنه ﷺ مع أخيه موسى عليه السلام، ومشاركته له في الفرحة، وشكر الله على أن نجاه ونجى بني إسرائيل معه. وليت ذريتهم من اليهود الآن يقدرون هذا الموقف النبوي الإنساني النبيل من نبي الرحمة ﷺ، يوم وقف مع المظلوم ضد الظالم، ويوم واسى المستضعفين ممن نجا من بطش فرعون، ولكنهم الآن يذبحون أتباع محمد بن عبد الله ﷺ في غزة، ويحاصرونهم ويهدمون بيوتهم ويتلفون أموالهم كما فعل فرعون بأسلافهم، فاليهود الآن يقفون في صف فرعون، ويفعلون ما فعله بأجدادهم، ويقاتلون أتباع نبي الرحمة، الذي صام شكراً لنجاتهم من الطغيان والاستبداد والقتل والتعذيب، فأي موقف أشنع وأبشع وأقبح من هذا الموقف الدال على الخسة واللؤم ونكران الجميل وجحد المعروف، وهو مذهب نذل ومنهج رذل لا يفعله الأسوياء الشرفاء.

لقد كان المفترض على اليهود أن يستفيدوا من الدروس الغابرة التي حلت بهم على أيدي الطغاة: كبختنصر وفرعون وهتلر، ولكنهم وياللخيبة قلدوا الطغاة واقتدوا بالجلادين، فتحولوا إلى قتلة وسفاكين وإرهابيين، فهم يريدون تطبيق ما وقع عليهم من عذاب وتنكيل وإبادة جماعية وتشريد وطرد على غيرهم، فتراهم يتلذذون بقتل الأطفال، وذبح الشيوخ، وإحراق البيوت، ويتفننون في ترويع الآمنين وتعذيب الأسرى، وإحراق أكباد الأمهات، وذبح الأيتام أمام سكوت مطبق من العالم، فأين هذا الموقف المهين من موقف سيد المرسلين، وهو يشارك أخاه موسى في صيام عاشوراء، شكراً على سلامة اليهود الفارين من عذاب فرعون؟

ويوم عاشوراء هو صيام وشكر وذكر وعبادة وليس نياحة، والحسين بن علي الشهيد رضي الله عنه ولعن الله قاتله، لا يرضى لو كان حيا ما يقع في ذكرى استشهاده من لطم للخدود وشق للجيوب وتجريح للأجسام، فهذا كله مما نهت عنه الشريعة، ونشكر عقلاء الشيعة الذين نهوا أتباعهم عن هذا العمل البدعي الخرافي، وأنكروا على من فعله، لأنه مخالف للسنة، وفيه تشويه لصورة الإسلام الجميلة البهية.

إن يوم عاشوراء مناسبة نبوية شريفة، يصوم فيها يوم العاشر من شهر محرم، حمداً لله على نجاة المستضعفين والمقهورين، ولكن أحفاد هؤلاء المستضعفين المقهورين تحولّوا إلى عصابة إرهابية وحشية، لا تحمل رحمة ولا ضميراً ولا إنسانية.

إن الإسلام جاء لنصرة المظلوم، ومواساة المنكوب، وإغاثة الملهوف من أي جنس أو بلد أو ديانة أو ملّة، بغض النظر عن عقيدته ولونه ونسبه ووطنه، حتى جاء برفع الضيم عن الحيوان البهيم والطائر البريء، فرجل يدخل الجنة في سقيا كلب، وامرأة تدخل النار في تعذيب هرة، فيا أتباع نبي الرحمة وإمام الهدى، قفوا مع كل مظلوم ومقهور ومستضعف ومسكين ويتيم، لأنه الموقف الصحيح الشرعي، وإياكم ومساندة الظالم ومعاونة المستبد ومناصرة الطاغوت، ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾.

لماذا انتصرنا؟ لماذا انهزمنا؟

انتصرنا فيما سبق من الزمان يوم كان شعارنا لا إله إلا الله، يوم كان جنودنا يعفّرون وجوههم سجداً لله قبل المعركة، يوم كان جيشنا يكبر في الأرض، فتكبر الملائكة في السماء، فتهتز الجبال، وتنخلع قلوب الأعداء، ويحل النصر، ويحصل الظفر، يقول محمد إقبال:

نحن الذين إذا دُعوا لصلاتهم
والحرب تسقي الأرض جاماً أحمرا

جعلوا الوجوه إلى الحجاز فكبروا
في مسمع الروح الأمين فكبرا

يوم حضر خالد بن الوليد معركة اليرموك وكان جيش الروم كالبحر الهائج، فقال أحد المرجفين لخالد: اليوم يا خالد: نفّر إلى جبل سلمى وأجا، قال خالد وقد رفع سبابته ونظره إلى السماء: لا والله لا نفّر إلى جبل سلمى وأجا، لكن إلى الله الملتجى، فحصل الفتح المبين، ولما حاصر قتيبة بن مسلم كابل رفع أحد العباد أصبعه يقول: يا حي يا قيوم. فقال له قتيبة: والله إن أصبعك هذه أقوى عندي من مائة ألف شاب طرير، ومن مائة ألف سيف شهير، ولما حضر صلاح الدين في حطين انتظر حتى صعد خطباء الجمعة على المنابر لتكون ساعة إجابة، ولما حضر قطز عين جالوت صرخ في الجيش: «وإسلاماه» وسجد الأشرف خليل بن قلاوون عند فتح عكا، وسأل الله أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير، ويوم قال عبدالعزيز ابن عبدالرحمن لأحد عماله: إذا كان الله معك فمن تخاف؟ وإذا الله كان ضدك فمن ترجو؟

انتصرنا يوم كان الحاكم والمحكوم على قلب رجل واحد، انتصرنا يوم صاح عمر على المنبر عام الرمادة، قائلاً: والله لا أشبع حتى يشبع أطفال المسلمين،

انتصرنا يوم نصرنا المستضعفين، وكفلنا الأيتام، ورحمنا المساكين، وواسينا الفقراء، انتصرنا يوم حملنا القرآن في قلوبنا، والعزة في أنوفنا، والهمة في رؤوسنا، انتصرنا يوم انتصر العدل على الظلم، والحرية على الاستبداد، ورأي الأمة على رأي الفرد، انتصرنا يوم شيّدنا صروح المعرفة ومنارات العلم، فقدمنا للعالَم الشافعي وابن تيمية وابن خلدون وابن سيناء وابن رشد وألوفاً أمثالهم، انتصرنا يوم قادنا عمر وسعد وخالد وطارق وقتيبة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ثم انهزمنا يوم ألغى بعض حكامنا الإسلام جهاراً نهاراً، ووضع مكان الله الواحد الحزب الواحد، وألغى لا إله إلا الله ورفع مكانها: أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة. ويوم رفض بعضنا السجود لله وسجد للشيطان والصنم والطاغوت.

وانهزمنا يوم أكلنا الربا والسحت، وكذبنا على أنفسنا والناس، وغدر بعضنا ببعض، وسفك سفهاؤنا دماء عقلائنا، وطففنا الكيل والوزن، وهجرنا القراءة والكتاب والصناعة والإبداع، وتشاغلنا باللهو والرقصات الشعبية، والنعرات القبلية والشعارات العنصرية، والهتافات الحزبية، والغناء والغثاء والهذيان والفراغ مع البطالة، وانهزمنا يوم كُسر القلم الحر، وكُمّم الفم الصادق، وصودرت حقوق الناس، وسجن الأبرياء وجلد الشرفاء، واغتيلت حرية الرأي، ولُعب بالمال العام، وعذّبت الشعوب بسياط الاستبداد والاستعباد، ونصبت محاكم التفتيش، وصارت كثير من الدول العربية سجوناً كبيرة لمواطنيها، وصار الإسلام تهمة، والمسجد مهجورا، والمصحف مجلة، والمصنع بارًا، وهجرنا الاكتشاف والاختراع والعمل والإبداع، ورضينا بالذل، وآثرنا الخمول، وعشقنا النوم، وغلبنا الكسل.

انهزمنا يوم تفرقنا واختلفنا وانقسمنا إلى طوائف وفرق وأحزاب ومنظمات وجماعات، كل فئة تلعن الأخرى، وتكفرها وتستحل دماءها، وصار بعض العلماء والكتاب والمفكرين يتبادلون التهم والتخوين والتكفير، ونسينا مهمتنا في الحياة

بعدما كنا خير أمة لأعظم رسالة وأجلّ دعوة في أقدس بقعة، لأشرف هدف بأحسن منهج، وأكمل شريعة، وأنبل قيادة، وأكرم جيل، وأصفى منهج، وأروع حضارة، وأطهر إنسانية، فإلى الله المشتكى وعليه التكلان، وهو المستعان، وبه المستغاث، وإليه الملجأ ومنه الرشد، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

العولمة كشفت كل مستور

صار الإنسان مكشوفاً أمام العولمة ووسائلها من إنترنت وقنوات وجوال وأجهزة تنصّت وتصوير، وما أصبح عنده شيء مستور، ولا سر مخفي، ولا خاصة مخبوءة، وأصبح الإنسان داخل غرفة نومه الخاصة المغلقة هدفاً سهلاً واضحاً مكشوفاً، لأي تصوير أو تنصّت، ومهما حاولت الاختفاء والاختباء خلف الجدران والحيطان، فإنك لن تنجو من رقابة العولمة واكتشافها لك، ليس ببعيد أن تصور وتدبلج صورك في أوضاع غير لائقة، وليس بغريب أن يدبلج صوتك ويؤخذ منه مقاطع تدان بها، وقد يؤخذ صوتك من الجوال والإنترنت وأنت تتصل بزوجتك، فيوجه على أنك تكلم أجنبية، فما هو الحل أمام هذا السيل الجارف من الوسائل والأجهزة التي كشفت كل شيء، وفضحت كل مستور، وأظهرت كل مخفي، وجعلت سافل الدنيا عاليها، وصارت الغرف الخاصة كالحدائق العامة، والمكاتب السرية كالأسواق.

وقد تنبه كثير من حملة الضمير إلى هذا الوضع المأساوي الذي يواجه الإنسان، وفكروا في حلول تحمي مكانة الإنسان وعرضه وسمعته أمام طغيان العولمة والحضارة المادية، التي تفتقر إلى الرقابة والحياء والستر والعفاف، وفي القرآن حل لهذه المأساة لو اهتدت البشرية لهذا الحل، يقول تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾، وهذه الكلمة لا توجد في أي قانون ولا دستور أرضي، فالقوانين والدساتير الأرضية تراقب ظاهر الإنسان، ولكنها لا تستطيع أن تخوض في أعماقه، ولا تدخل نفسه، ولا تعرف ما في ضميره، ولكن الواحد الأحد علام الغيوب هدد البشر برقابته على تصرفاتهم وأسرارهم، وما تكنه ضمائرهم، وما تخفيه صدورهم، إذن فلا حل لنا إلا بمراقبة الله والخوف منه، وتربية الناس على سلامة الضمير، وعفاف القلوب، وحب الستر، والانتهاء عن هتك أستارهم وفضح أسرارهم، وقد حذّر الوحي من هذا المسلك المشين، والخلق الدنيء، والتصرف المهين، والفعل الرخيص، الذي يقوم به التافهون الأنذال الحقراء، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾، وقال الرسول ﷺ: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن قلبه، لا تتبعوا عورات المسلمين، فإنه من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته، ومن تتبع عورته فضحه ولو في عقر داره**»، للبيوت أسرار، وللناس أعراض، وللبشر كرامة، فيا من رخصت عليه نفسه، فأصبح شؤماً على عباد الله، يفرح بعثراتهم، ويجمع زلاتهم، ويكشف أخطاءهم، أنت عديم المروءة، فقير الخلق، مجدب الذوق، ميت القلب، أما عندك عقل يردع؟ أو إيمان يمنع؟

ينبغي علينا أن نربي الجيل على عفاف النفس، وحياة الضمير، وكريم الخلق، واحترام المشاعر، ورحمة الإنسان، والرفق بالناس، وستر البشر وعدم الاستهانة بأسرارهم وأخبارهم وأعراضهم، فيا أيها المتهور الطائش الأرعن النزق الأحمق أما لديك عرض تخاف عليه؟ أما عندك سمعة تحرص عليها؟ أما في بيتك زوجة وبنات وأبناء وعمات وخالات تخشى على أعراضهن وسمعتهن؟

أما فكرت يا من ينشر غسيل الناس، ويفرح بعثراتهم، ويظهر أخطاءهم، أنك في يوم ما سوف تنال الجزاء من الحكم العدل سبحانه، فتسقط سقطة، وتغلط غلطة، وتتورط في ورطة؟ حينها تحين ساعة الانتقام، ويحل يوم القصاص، فتذوق سوء المصير وعاقبة الظلم، لأنك طالما أبكيت عيناً، وأحزنت قلباً، وروعت أسرة، وهدمت مجداً، وهتكت عرضاً بتصرفك المشين، يوم نشرت صوراً، أو دبلجت صوتاً، أو فرحت بزلّة، أو نشرت عثرة، أو أذعت سراً، أو شمتَّ بإنسان، وقتها سوف يكون مصيرك مراً، وعاقبتك خزياً، ونهايتك بؤساً، نحن بحاجة لحياة ضمير وتقوى قلوب، وكرم نفوس أمام طوفان العولمة، الذي عرى العالم وكشف الدنيا، وفضح المعمورة.

القاتل المحترف

المخدرات من أعظم الأمراض فتكاً بالمجتمع؛ لأنها تفقد الإنسان عقله، وحينها يتحول الإنسان السميع البصير العاقل إلى حيوان بهيم وإلى وحش مفترس، وقد انتشر داء المخدرات بين شبابنا، فاشترك هو والإرهاب في تدمير الشخصية الإسلامية، وتشويه الصورة الجميلة للشاب المسلم ونتج عن المخدرات إعدام العقول، وضياع الأسر، والقتل، والمنكرات، والفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأصبح للمخدرات عصابات إجرام ومافيا إفساد، وحمل أصحاب المخدرات السلاح يهددون به أمن الناس، ويبتزون أموالهم، ويهتكون أعراضهم، وكم من عقل ذكي وذهن عبقري تحوّل صاحبه إلى ثور بليد، ولص عنيد، وشيطان مريد، فصار خلف القضبان بعدما فقد إنسانيته، وخسر مستقبله، ودمّر ذاته ومجتمعه.

ونحن أمام المخدرات نحتاج إلى سلاحين قويين: سلاح التوعية والتربية، وسلاح القوة، أي: الحجة والبرهان والسوط والسِنان، فلا بد من أن يشارك المجتمع كله في حرب المخدرات، فالأب برعايته، والداعية بتوجيهه، ورجل الإعلام بتحذيره، والجندي بمراقبته، والشاب بتحصينه، والمخدرات بل المسكرات بأنواعها هي أم الخبائث؛ لأن كل جريمة ومعصية سوف تحصل بعدها، فمن رضي بإذهاب عقله وضياع رشده، فسوف يفعل كل ما يعيب وما يشين.

وفي المجتمع أسر تهدّمت، وذهب استقرارها بعدما وقع المسؤول عنها في المخدرات فأصبحت العائلة فريسة للجهل والمرض والفقر والجريمة، ولله كم من عبقرية مرّغتها المخدرات في التراب! وكم من ذهن وقّاد حوّلته المخدرات إلى مزبلة! وكم من قلب كبير وهمّة عالية صارت بعد التخدير لعبة في يد الشيطان! صاحب المخدرات غدة سامة في جسم الأمة، وعضو مشلول في بدن الوطن، وعين عوراء في وجه المجتمع، صاحب المخدرات عدو للأمن والعلم والاستقرار والتقدم والفضيلة، صاحب المخدرات بهيمة في مسلاخ إنسان ودابة في هيئة رجل؛ لأن الله عز وجل

شـرف الإنسان بالعقل وميّزه بالإدراك وخصـه بالوعي، ولكن صاحب المخدرات لا عقل ولا إدراك ولا وعي، فهو مسلوب الإرادة، منـزوع الرشد، ذاهب البصيرة، فاقد التمييـز، صاحب المخـدرات كان يُنتظر أن يكون على كرسـي التدريس وعلى منبر التوجيـه وفي نوادي العلم والمعرفة وفي صروح المجد والعطاء، ولكنه رفض ذلك كله وتحـول إلى مفسد شرير وإلى عضو فاسـد وفرد منبوذ وإنسان حقير رخيص تافه فاشـل، فتبرأت منه المساجـد، وطُرد من الجامعة، وحورب من الأمة، وسُخط عليه من الوالدين، ونبذته القرابة، وأدانته المحكمة، وأهانه الرجال ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾، إن صاحب المخدرات تحول من عالم الاحترام والتبجيل والتقدير والإكرام إلى سجن المهانة والمذلة والضرب والزجر والتهديد، فسبّه الرجال وحكم عليـه القاضي، وجلده الجندي، ودعا عليه الوالد، وتبرأت منه الوالدة، وصار نقمة على الأسرة، ومسبّة للقبيلة، ولعنة على نفسه، وخيبة لمستقبله.

إن الواجـب علينا أن نقف صفاً واحداً أمام طوفـان المخدرات، حمايةً لأمننا وبيوتنـا وأعراضنـا وشرفنـا وإسلامنا ومستقبلنـا، وقد حاول بعض الآباء عبثاً أن يدركـوا أبناءهم بعدمـا وقعوا في المخدرات ولكن هيهات، فـات الأوان، وقضي الأمـر الذي فيـه تستفتيان؛ لأن الإهمال وتضييع الأسـرة والتفريط في التربية مع القدوة السيئة أنتجت ابناً عاقاً شريراً فاسداً مفسداً، انتهى به الحال من المسجد والجامعـة والنـادي والمصنع والمؤسسة إلى قاطع طريـق إرهابي محارب للمجتمع لصـ محترف، تجـده في عصابة يخطط في البـوادي، ويهرب من وجـه العدالة، ويختفـي في المغارات والأودية ورؤوس الجبال، يُطارد كما يُطـارد الثعبان، ويُقتل كما تُقتل الحيّة، ويُسحب كما تُسحب الشاة، وقد أصبح جثة مليئة بالدنس والرجس والنجـس، فلا وضـوء ولا طهارة ولا غسل ولا نظافة ولا قداسة ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أيها العالم شدوا الأحزمة

أعلن الرئيس الأمريكي قبل أيام أن أمريكا في خطر، ويقصد بذلك تدهور الاقتصاد، وأقول: إن العالم في خطر منذ أن نزل آدم من الجنة إلى الدنيا، فليس في الدنيا ما يمكن الوثوق به والركون إليه إلا الله وحده، لا تظن أنك سوف تبقى غنياً أبداً، وأن المال حصنك الحصين أمام الأزمات والكوارث، فالغني يفتقر، والثري يفلس، والعملة تتبدل وتتغير قيمتها، فلا تثق بصحتك وتظن أنك سوف تبقى قوياً مكتمل الشباب، تام الفتوة مفتول العضلات، فالهرم قادم، والشيخوخة مقبلة، والمرض زائر مفاجئ، ولا تركن إلى الأبناء، وتعتقد أنهم العدة وقت الشدة، والملاذ عند الأزمات؛ فقد يخرج منهم العاق المارد والجاحد الكنود، ولا تثق بالعشيرة والقبيلة والأسرة، وتظن أنهم الدروع الضافية والحصون الواقية؛ فقد يخذلونك أحوج ما تكون محتاجاً لنصرتهم.

ولا تفرح بالمنصب وتطمئن إليه؛ فالكرسي دوار والأيام دول، وقد يأتيك خبر العزل من المنصب أسرع من البرق الخاطف، فتعود إلى بيتك بلا إمارة ولا سفارة ولا وزارة ولا تجارة، وتسكن في عُشّة بعد العمارة، ولكن كن كما قال الله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، ونحن البشر في ورطة منذ أن خُلقنا وسقطت رؤوسنا على الأرض، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾، ولله در الشاعر حين أجاد في قوله:

وَلَدتكَ أُمُّكَ يا ابنَ آدَمَ باكيًا
وَالنَّاسُ حَولَكَ يَضحَكونَ سُرورا

فاعمَلْ لنفسك أن تكونَ إذا بكوا
في يومِ موتِك ضاحكاً مسرورا

ويرى صديقي وزميلي أبو الطيب المتنبي: أن الأحمق صراحة من يستعزُّ ويتقوى ويثق بالأمور الفانية، فيقول:

فالموت آتٍ والنفوس نفائسٌ
والمستعزُّ بما لديه الأحمق

وفي كتاب (الإيمان) للرئيس الأمريكي الأسبق (كارتر) يقول: إنه إذا عصفت به الأزمات في البيت الأبيض التجأ إلى الله، وقصده على طريقته المحرفة المنسوخة، وقد ذكر الرئيس الأمريكي السابق (جورج بوش الأب) في مذكراته (سيرة إلى الأمام) أنه حضر جنازة رئيس الاتحاد السوفيتي السابق (برجنيف) قال: فوجدتها جنازة مظلمة لا نور فيها، قلت: لأن بوش مسيحي أقرب إلى الهداية وعنده بصيص من نور، و(برجنيف) ملحد لا يؤمن بالله، فكيف لو عرف بوش الإسلام الدين الحق، إذن فنحن منذ أن وُجِدنا على هذا الكوكب ونحن في خطر من الموت والمرض والحرب والفقر والظلم والهم والكوارث والأزمات، وليس لنا من حلٍّ إلا الفرار إلى الله بتوحيده وعبادته، كما قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

وأمريكا الإمبراطورية العظمى في هذا العصر سوف تدركها سنة الله في الأمم والدول، كما ذكر ذلك ابن خلدون في مقدمته، وسوف تضعف ويأتي غيرها كما قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾، وقد ذكر الرئيس الأمريكي السابق (رتشارد نيكسون) في كتابه (الفرصة السانحة) أن الصين قادمة لتأخذ مكانة أمريكا بالقوة والهيمنة، قلت: بل هي دورة التاريخ وسنة الله في عباده، وكل أمة أخذت دورتها من السؤدد والارتقاء ثم هبطت لتأتي أمة أخرى تأخذ الدور والقيادة، وليت البشرية في أزماتها ومصائبها وكوارثها تعود إلى ربها وخالقها لعبادته وحده- جل في علاه- واتباع رسوله ﷺ والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

وإن كانت أمريكا في خطر كما يقول (جورج بوش) فالكون كله في خطر؛ لأن العالم سوف ينتهي، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، أين الآشوريون والكلدانيون والكنعانيون؟ أين ذوو التيجان والسلطان والهيلمان والإيوان؟ صاروا خبراً بعد عين، وحكاية حلوة في المجالس، وسالفة غريبة في النوادي، وقصة مؤثرة في بطون الكتب.

يقول زميلي وصديقي أبو الطيب:

أَينَ الجَبابِرَةُ الأَكاسِرَةُ الأُلى
كَنَزوا الكُنوزَ فَلا بَقينَ وَلا بَقوا

مِن كُلِّ مَن ضاقَ الفَضاءُ بِجَيشِهِ
حَتّى ثَوى فَحَواهُ لَحدٌ ضَيِّقُ

الحجة أقوى من الملاكمة

تابعت برنامج إضاءات (لقناة العربية) مع الأستاذ تركي الدخيل وضيفه الكاتب والمفكر الإسلامي حمد الماجد، وبين قوة المحاور المناور، وإشراق وإبداع الضيف الماجد، صاحب السجل المشرف في العمل الإسلامي النبيل الوسطي المعتدل، وصلا إلى قصة الصلاة على الشاعر نزار قباني في المركز الإسلامي بلندن، واختلاف المصلين في الصلاة عليه، بسبب مخالفاته الشرعية، التي لا تبرك عليها الجمال مع إبداعه الشاعري ونبوغه الأدبي.

وقفز إلى ذهني موقف مرَّ بي شبيه بهذا الموقف قبل سنوات بولاية أكلاهوما بالولايات المتحدة الأمريكية في مؤتمر الشباب العربي المسلم، الذي حضره أكثر من ستة آلاف، وقمت بإلقاء كلمة بعد صلاة المغرب على عادة الضيوف، وفي الحضور الشيخ عبدالله عزّام والشيخ أحمد القطان والدكتور طارق السويدان والدكتور عصام البشير، ونبَّهتُ في كلمتي على أن المعصوم عندنا هو رسولنا محمد بن عبدالله ﷺ وحده، أما غيره فيؤخذ من كلامه ويُرد، وأن علينا أن لا نغلو في تقديس الرموز، كما قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والغلو**»، وقوله ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبدالله ورسوله**».

فقاطعني أخٌ من العراق وردَّ كلامي، فقام الشيخ أحمد القطان ودافع عني، فقام أخٌ من اليمن فردّ علي وعلى القطان، فقام أخٌ سعودي وردّ على اليمني، ثم قام آخر وردّ على السعودي، ثم قام الأخير فردّ علىَّ الذي ردّ على الأول، وتحوّل المسجد إلى فوضى وجلبة، وخفنا على أنفسنا، فزحفتُ أنا والشيخ أحمد القطان إلى الباب الأمامي من الصالة الكبرى، ودخلنا (اللفت) أي: (الأسنسير) أي: (المصعد) فلما دخلنا ضحكنا من حالنا، وقرأ الشيخ أحمد القطان: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾.

انظر إلى حالنا في مؤتمراتنا حتى في الخارج، لا نكاد نسلم من الخلاف والشقاق، الذي حملناه معنا من بلاد العرب، وذهبنا ننشر غسيلنا على الناس، وليتنا إذ اختلفنا تحاورنا بهدوء، وتكلمنا بعقل، وتجادلنا بالحسنى، لكن بعضنا يفضل الملاكمة والمصارعة والمطارحة والمنازلة والضرب والعض والرفس والدهس والنهش، حتى إنني رأيت مجلس نواب (برلمان) في دولة عربية اختلف أعضاؤه ثم صاحوا، ثم ضجوا، ثم قاموا، ثم تماسكوا، ثم تضاربوا، ثم تدافعوا، ثم تراموا بالكراسي، وهذا عيب يا ناس، وخطأ كبير يا بشر، وغلط فاحش يا بني آدم، إن حجة الأحمق في يده، وبرهان العاقل في ضميره، ويعجبني جداً موقف نُقل على الهواء مباشرة من مجلس الأمن قبل احتلال العراق بأيام وإسقاط نظام صدام حسين إذ تحدّث وزير خارجية (أمريكا) آنذاك (كولن باول) وذكر أن أمريكا لا بد من أن تفرض بقوتها العدالة في العالم وكانت فرنسا معارضة لهذا التوجه، فردّ عليه وزير خارجية فرنسا وقتها الشاعر المثقف (دومينيك دوفيلبان) وقال له: إن كنتم عضلات العالم، فنحن ضمير العالم.

إن المسألة يا سادة يا كرام مسألة حجة ودليل، قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾، ويقول البوصيري:

والدَّعاوَى ما لم يُقيموا عليها
بَيِّناتٍ أصحابُها أدْعياءُ

لكن من يُفهم العمي البكم الصم الذين يلغون المنطق، ويرفضون البرهان ويضيقون بالخلاف، قال آية الله أبو الطيب المتنبي:

وكيف يَصِحُّ في الأذهانِ شَيءٌ
إذا احتاجَ النَّهارُ إلى دَليلِ

أئمة الضلالة

زرتُ أنا والدكتور يحيى الهنيدي من جامعة الإمام دولة عربية، وسمعنا برجل عندهم يسمونه الولي الكبير، له أتباع ومريدون، يعتقدون فيه الولاية، وبعضهم يعتقد فيه العصمة، وجلسنا عنده وطلابه حوله جلوس، كأن على رؤوسهم الطير، يقبِّلون يده وقدمه، وعنده من البدع والخرافات ما يشيب لها الرأس، فسألناه عن طريقته، فأخبرنا أنه ورثها عن علماء وأولياء كبار، قلنا: ما الدليل على صحتها؟ قال: لا تسأل عن الدليل، هذه أمور نحن أعرف بها، قلنا: نحن وأنت إذا اختلفنا فمرجعنا الكتاب والسنة، تعالَ ببرهان من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على صحة هذه الأعمال التي تزاولونها، فأخذ يتهرب، قلنا: أما قال الرسول ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»، وأعمالك هذه ليست على أمر الرسول عليه الصلاة والسلام، بل هي من البدع التي نهى عنها ﷺ، فاستشاط غضباً وخرج عن الحوار، وتبرّم من مجلسنا وغضب منّا، وعلمنا أنه لا يملك حجة، إنما هو الهوى والتقليد الأعمى، وخرجنا وهو في ضلالته وبدعه وخرافاته، يضل الناس ويغويهم عن الصراط المستقيم، وعنده طلاّبه أسكنهم بجواره في عماراته، اشتراها من أموال المساكين ومن جيوب الفقراء، الذين صدقوه واتبعوه في انحرافه وغيّه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

والعجيب أنه على هذا الاعوجاج والضلال معظَّم عندهم مقدّس عند العامة، وما ذاك إلا لانطماس معالم التوحيد، وانطفاء أنوار السنة في قلوبهم، وإلا فهل يُعقل أن يقوم هؤلاء الضُّلاّل الدجاجلة الكذابون الأفّاكون بصرف الجيل عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإغراقهم في بحار الشرك والبدع والخرافات في بلد عربي مسلم، ثم يُكّرم هؤلاء الضلاّل ويُبجّلون، وتُهدى لهم الهدايا وتُصب عليهم الأموال؟

إن هذا يدلك على مستوى ما وصلت إليه الأمة من جهل بدينها، وإعراض عن سنة نبيها ﷺ، ووجدنا بعض أهل هذه الدولة ينقلون الكرامات المزعومة والمنامات الكاذبة عن هؤلاء الأئمة الضلّال، ويذهبون إليهم بالقرابين، ويطلبون منهم كشف الضر وشفاء المريض وإزالة الكرب وطلب الذرية وتسهيل أسباب الرزق، والله تعالى يقول: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ويقول تعالى في الحديث القدسي الصحيح: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**».

فأين علماء الإسلام من هذا الزور والبهتان، الذي يُمارس جهاراً نهاراً مع تشجيع من بعض الحكومات، التي تحبس العلماء الصادقين والدعاة المخلصين، وتفتح المجال للمخرِّفين والمنحرفين، وتسهل لهم كل الصعاب لإغواء الأمة، وصرفها عن منهج الله وسنة نبيه ﷺ؟ وإذا كنا في العالم الإسلامي نشكو من كثير من المعضلات الدينية والدنيوية، فإن أعظمها على الإطلاق جهل الناس بتوحيد ربهم -عز وجل- ووقوعهم في الشرك وانحرافهم عن السنة إلى البدعة.

فإن أعظم القضايا وأكبر المسائل هي توحيده سبحانه وتعالى، وإفراده بالعبودية لا إله إلا هو، وإخلاص العمل له واتباع رسوله عليه الصلاة والسلام، كما قال ﷺ في حديث معاذ بن جبل لما سأله ﷺ فقال له: «**يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟**» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**حق العباد على الله أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً**»، ثم قال: «**أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟**» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإن حقهم إذا فعلوا ذلك ألا يعذبهم**».

فهل آن الأوان يا مسلمون لتدارك الحال وإصلاح الوضع وتصحيح عقيدة المسلمين وهدايتهم إلى دين ربهم وردهم إلى الطريق القويم والصراط المستقيم بالحكمة والموعظة الحسنة والرفق واللين؟

خذوا على أيدي المبذرين

المبـذرون هم إخوان الشياطين؛ لأنهم يتجـاوزون الحدود الشرعية والقواعد المرعيـة في نفقاتهـم وتصرفاتهـم، وعندنا في المجتمـع أناس يلعبـون بالمال لعب الأطفـال بالطين؛ لأنه وصل إليهـم بسهولة، فصرفوه بسهولـة، فتجدهم ينفقون على ملاذهـم وشهواتهم وموائدهـم واستراحاتهم وأسفارهـم الملايين المليئة، وجيرانهـم شريحة هائلة من الفقـراء المعوزين، الذين يقفون على أبواب المساجد والطرقـات يسألون الأغنياء ولا مجيب، ألا يستيقـظ ضمير المبذر وهو يرى نفسه مثخناً بجراح المترفين ومرض المتكبرين وداء المتجبرين؟ ويظن هؤلاء أنه على قدر إنفاقهـم وكثرة صرفهم سوف يحصلـون على الاستقرار النفسي والحياة الطيبة، ولكن هيهات، فالسعادة ليست شيكاً يُصرف، ولا رصيداً يُنمّى، ولا ثروة تُزاد، إنما السعـادة فوق هذا كله، إنها إيمـان ورضا وسكينة وقناعة، وأمن داخلي وسلام مع النفس ومع الناس.

فيـا صاحب الموائد المستطيلة، ويا صاحب حفـلات البذخ والإسراف أفِق من غفوتـك، وتذكـر أنك مسؤول عن هـذا المال أمام الله، ثم أمـام ضميرك وورثتك والنـاس، فلا تبالـغ في السّفـه والحمق إلى درجـةٍ تلغي فيها مطالـب الروح على حساب الجسد، فيامن يربي بدنه ويسمّن جسمه على حساب عقله وقلبه! إن كنت تفاخر بقوة جسمك فالبغل أقوى منك، وإن كنت تفاخر بضخامة أعضائك فالثور أضخم منك أعضاءً، وإن فاخرت بعدْوك فالغزال أسرع منك، بل ليس هناك باب مـن أبواب المفاخرة بالجسم إلا وتجد أن حيواناً يفوقك في هذا الباب، فأقْبِل على الروح واستكمل فضائل النفس، قال أبو الطيب:

لَـولا الـعُـقـولُ لَـكـانَ أَدنـى ضَـيـغَـم
أَدنـى إِلى شَـرَفٍ مِـنَ الإِنـسـانِ

وغالب شبابنا تكبر بطونهم وتضمر عقولهم، لأنهم أقبلوا على الوجبات الدسمة بنهم، وأغفلوا قوت القلوب من العلم والمعرفة، فتمدد الجسم على حساب العقل، فتجد أحدهم سميناً بطيناً ثخيناً، وتجد عقله سخيفاً خفيفاً رهيفاً، وإنما شرّف الله عباده بعقولهم وإيمانهم ومعرفتهم وفهمهم لا بأجسادهم، حتى قال عن أعدائه المردة الأغبياء: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ وقد هجا حسان بن ثابت زعيم المنافقين عبدالله ابن أبي بن سلول وكان ضخماً سميناً لكنه فاشل حقير، فقال:

لا عَيبَ بِالقَومِ مِن طولٍ وَلا عِظَمٍ
جُسمُ البِغالِ وَأَحلامُ العَصافيرِ

أيها المبذرون كفى استهتاراً بالمال واستهانة بالنعم، وتعالوا إلى الترشيد في النفقة، وإحياء سنة المواساة الاجتماعية، وأشركوا في موائدكم الفقراء والأيتام والمحرومين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ وعلى كل منعّم مسمّن أن يطمئن أن هذه الجثة الضخمة التي يحملها سوف يُحفر لها قبر في الأرض، وتُدسّ ويُحثى عليها التراب، وتُجرّد من الثياب، ويتخلى عنها الأصحاب، ويفارقها الأحباب.

أيها المترفون! بطون الجائعين أولى من صناديق القمامة، وأجساد العراة أحق من كسوة الجدران والحيطان، وبناء بيوت للمساكين أفضل من شاليهات البذخ والإسراف، ويوم كنت أجمع مادة كتاب (لا تحزن) عثرت على كلمة لأحد أساطين الغرب تساوي مليون دولار، يقول: (كلما ترفّه الجسم تعقّدت الروح). ومقصوده أنك كلما بذلت وأنفقت في التنعم واللذة والمتعة دفعت ضريبة ذلك من استقرار نفسك وسعادة روحك واطمئنان قلبك، فتعيش قلقاً مكدّراً مهموماً، وانظر إلى حياة البسطاء أصحاب القناعة كيف يغردون بالأناشيد كأنهم الطيور، بينما يتناول كثير من المترفين العقاقير المسكنة، ويشكون من الأرق والقلق.

فاقتصدوا أيها المترفون رويداً رويداً، فقد سبقكم أباطرة وأكاسرة وقياصرة وجبابرة، لعبوا بالذهب والفضة كما يلعب الأطفال بالتراب، ثم صاروا في خبر كان: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾، حتى استهزأ بهم الشاعر الكبير المتنبي بعدما سُحبوا من القصور إلى القبور، فقال:

أَيــنَ الأَكـاسِـرَةُ الجَبـابِـرَةُ الأُلى
كَـنَـزوا الـكُـنـوزَ فَـمـا بَـقـيـنَ وَلا بَـقـوا

مِـن كُـلِّ مَـن ضـاقَ الـفَـضـاءُ بِـجَـيـشِـه
حَـتّـى ثَـوى فَـحَـواهُ لَـحـدٌ ضَـيِّـقُ

خُـرسٌ إِذا نـودوا كَـأَنْ لَم يَـعـلَـمـوا
أَنَّ الـكَـلامَ لَـهُـم حَـلالٌ مُـطـلَـقُ

الصراع الدموي ليس من الدعوة

نصوص الكتاب والسنة تدعو إلى الدعوة بالحسنى واللين والرفق والحكمة، والتدرج حسب الطاقة في إقناع الناس برسالة الإسلام العظيمة، وعدم إرهابهم فكرياً، أو السيطرة على عقولهم بقوة السلاح، فقد قال سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾، وقال: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، وقال: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾، ولكن للأسف فإن بعض الداعين إلى الإسلام فهموا النص خطأ، وقرأوا الرسالة غلطاً، فقاموا بمشروع دموي تصادمي مع الحكّام ولو كانوا ظلمة، وهذا خلاف المنهج الإسلامي الصحيح، يقول ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**».

فكلما اجتمع في بعض البلاد جماعة للدعوة وبدأ نفعهم وأثرهم الطيب في تصحيح أفهام الناس وتربيتهم على النهج القويم، سوّل لهم الشيطان مصادمة الحاكم، فقام خطيبهم يصيح: من يبايعني على الموت، وكلما استبشرنا خيراً بطالب علم، وبدأ يصلح عقائد وأفكار الناس ترك ذلك كله أمام زهو الجمهور وإعجاب المحبين وهتف في الحضور: (يا خيل الله اركبي)، فيؤخذ إلى الزنزانة، ويوضع بين أربعة جدران حتى يخرج أحدهم، ولسان حاله يقول: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. وبعض الجماعات الأخرى تطلب منازلة الحاكم من على المنابر، ونسيت أن ثكنات الجيش وطوابير العسكر ومخازن السلاح أكبر من المساجد والمخيمات والمعسكرات الكشفية، فيُسحب هؤلاء المجتهدون المغرر بهم ممن نقص فهمهم للدين، فيُعذَّبون ويُذبحون ويُسلخون ويُجلدون، وتُشرَّد أسرهم، وترمّل نساؤهم، ويُيتَّم أطفالهم، فلا يستفيد الآخر من الأول، وأين الاعتبار ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾، (مصائب قوم عند قوم فوائد).

هل هذه الممارسات صحيحة في الإسلام؟ أما كان منهجه ﷺ اليسر لا العسر، والرفق لا العنف، والحكمة لا الطيش ولا التهور؟ حتى وصفه ربه بذلك، فقال:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾، وقال له: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾، حتى إنه ﷺ في العهد المكي لم يواجه الجاهلية بالقوّة بل بقي يدعو ويربي ويصبر على الأذى، ويصحح عقائد الناس، ويزكي نفوسهم، ويطهر ضمائرهم، ويجتث الشر من أرواحهم حتى أسس أعظم وأعدل دولة في العالم، وقال له بعض أصحابه: لو قتلت رأس المنافقين عبدالله بن أُبيّ ابن سلول؟ فقال ﷺ: «**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**».

ولكن في العصور المتأخرة تُرك هذا المنهج تماماً عند كثير من الدعاة وكثير من الجماعات الإسلامية، وآثروا المواجهة الدموية مع الأنظمة الحاكمة ولو كانت ظالمة، وسلكوا العنف، وحملوا السلاح، وتمنوا لقاء العدو، فعُطِّل مشروع الدعوة، وأُغلقت حلقات العلم، وأوقف النفع العام، ومُنعت الكلمة الطيبة، وشُوِّهت الدعوة، وفُتِحت السجون، وانقسمت الشعوب بين عدو وصديق ومحب ومبغض، ثم نُسب هذا كله إلى الجهاد الإسلامي، وهذا خطأ في فهم المصطلحات الإسلامية والمقاصد الشرعية؛ لأن غالب من يوجه هذه الجماعات والطوائف ليسوا من علماء الشريعة الراسخين في العلم، فمنهم الطبيب والمهندس والمبتدئ ونصف المتعلم والعامي، ودفعت الأمة ضريبة هذه الأخطاء، سواء من صفوف الدعاة أو من صفوف العسكر أو من سمعة الإسلام أو من حياة الأطفال والنساء.

فهل آن لنا أن نكون شجعاناً، وندرس ملفات الماضي بصدق ووضوح، ونأخذ منها العبر والدروس، ونزنها بميزان الشرع على خُطى رسول الله ﷺ، ولا نبقى في هذا النفق المظلم نفق المواجهات الدامية والصدام المسلح بين الحاكم والمحكوم، ونخسر رسالتنا ونكون سبباً في نار فتنة تأكل الأخضر واليابس؟ أيها الدعاة اقرأوا المشروع الرباني النبوي الحضاري لرسولنا ﷺ، فهو الإمام القدوة والنبي المعصوم الذي أُمرنا باتباعه وحده دون سواه ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾.